برنامج [قـرآنـهـم] - الحلقة (9) سورة الأعراف ج (6)

الاحد : 15 شهر رمضان 1438هـ الموافق : 2017/6/11م

✤ في الحلقة السابقة تجوّلتُ معكم في رياض أحاديث آل محمّد، ووصلتُ إلى [تفسير القُمّي] وقرأتُ عليكم ممّا رواه عليّ بن إبراهيم عن الإمام الصادق "صلوات الله عليه".. وأُعيد قِراءة ما جاءَ عن إمامنا الصادق في [تفسير القُمّي] فللحديث بقيّة

قال الصادق "عليه السلام":

(فأوّل مَن قاس إبليس واستكبر، والاستكبار هو أوّل معصيةٍ عُصيَ اللهُ بها - في قُبّة أبينا آدم -، قال: فقال إبليس: يا ربّ اعْفِني مِن السجود لآدم، وأنا أعبُدكَ عبادةً لم يعبُدكَ بها مَلَكٌ مُقرّب ولا نبيٌّ مُرسل. قال الله تبارك وتعالى: لا حاجةَ لي إلى عبادتك، إنَّما أُريدُ أن أُعبَد مِن حيثُ أُريد لا مِن حيثُ تُريد، فأبى أن يسجد، فقال الله تعالى: {فأخرج منها فإنّك رجيم وإنّ عليك لعنتي إلى يوم الدين} فقال إبليس:

يا ربّ كيف وأنتَ العَدْل الذي لا تجور، فثواب عملي بَطُل؟ قال: لا. ولكن اسأل مِن أمْر الدُنيا ما شئتْ ثواباً لعملك فأُعطيك، فأوّل ما سألَ البقاء إلى يوم الدين، فقال الله: قد أعطيتُك، قَال: سَلّطني عَلى وُلْد آدم، قال: قد سَلّطتك، قال: أجرني منهم مَجرى الدم في العُروق، قال: قد أجريتك، قال: لا يُولد لهم ولدٌ إلّا ويُولد لي اثنان، وأراهم ولا يَروني وأتصوّر لهم في كلّ صُورةٍ شئتْ، فقال: قد أعطيتك، قال: يا ربّ زدني، قال: قد جَعلتُ لكَ ولذُريّتَكَ في صُدورهم أوطاناً، قال: ربّ حسبي، فقال إبليس عند ذلك: {فبعزتك لأغوينّهم أجمعين إلّا عبادكَ مِنهم المُخلَصين ثُمّ لآتينَّهم مِن بين أيديهم ومِن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجدُ أكثرهم شاكرين}). الحديث في أجواء قِصّة الخلافة، وقصّة أبينا آدم والملائكة وإبليس.

● قول الرواية (إنَّما أُريدُ أن أُعبَد مِن حيثُ أُريد لا مِن حيثُ تُريد، فأبى أن يسجد،) هذهِ فتنةُ الأمم والشعوب، وهذه فتنةُ رجال الدين.

الأُمّة بعد نبيّنا سيّد الكائنات مُحمّد "صلّى اللهُ عليه وآله" تركتْ الباب الذي فتحه لها "صلّى الله عليه وآله" وفتحت لها أبواباً، فعبدت الله من حيث تُريد هي لا من حيثُ يُريد الله ويُريد الرسول.

وفي أجوائنا الشيعية اشترط علينا رسول الله في بيعة الغدير أن نأخذ التفسير عن عليّ.. ولكن الشيعة (وأعني بالشيعة: علماء الشيعة، ومراجعها، وأكابرها ومُفسّريها، وخُطبائها، ومُفكّريها.. المؤسّسة الدينية بكلّ أفرادها) أعرضتْ بوجهها عَن تفسير عليّ بحجّة "علم الرجال" الذي جاؤوا به من النواصب.. ففتحوا باباً لهم غير الباب الذي اشترط علينا رسول الله أن ندخل منه، ولم يأذنْ لنا بالدُخول من بابٍ آخر حتّى نكون في عِداد شيعةٍ عليّ. لكن الأمّة تركتْ هذا الباب وفَتحتْ لنفسها باباً آخر صَنعتهُ مِن وسائل جاءتْ بها من النواصب.

فالمُشكلة هي هي.. عبادةُ الله من حيثُ يُريد الناس لا مِن حيثُ يُريد الله.. تِلك هي حكايةُ إبليس وتلك هي مُشكلتنا

● والأمر هو هو على طول الخط: فحينما يتبنّى الفقيهُ أو المرجع رأياً، وحِينما يُواجَهُ بالحقائق يُكابر ويبقى يُصِرّ على أنّ العِبادة مِن حيثُ ما هو يُريد.. يترُكُ حديث أهل البيت ويتمسّك باستحساناتٍ لجأ إليها بسبب جَهْلِهِ بحديث أهل البيت.. وإنّما وَرِثَ عِلْماً بحديث أهل البيت مِن أجيال سابقة، فتصوّر أنّ أهل البيت قالوا فقط هذا الكلام لأنّ الذين سبقوهُ قد ألغوا بقيّة الحديث بحُجّة "علم الرجال".. فعندما يُواجه بالحقائق وهو لا يملك دَليلاً على ضعفها يُكابر ويُعاند. المَعصيّة هي هي.. فأوّل مَن قاس إبليس واستكبر.. والاستكبار هو أوّل معصيةٍ عُصِيَ اللهُ بها.

✤ ورواية عن زرارة عن إمامنا الصادق "عليه السلام" جاء فيها:

(لمَّا أعْطى اللهُ تبارك وتَعالى إبليسَ ما أعطاهُ مِن القُوّة، قال آدم: يا ربّ سَلَّطتَهُ عَلى وُلْدي، وأَجريتَهُ فيهم مَجرى الدمِ في العُروق، وأعطيتَهُ ما أعطيتَهُ، فما لي ولولدي؟ فقال: لكَ ولولدك السَيّئة بواحدة والحَسنةُ بعشر أمثالها، قال: يا ربّ زِدني، قال التوبةُ مبسوطةٌ إلى حِين يَبلغُ النَفَسُ الحُلقوم - في اللّحظات الأخيرة من حياة الإنسان -، فقال: يا ربّ زدني قال: اغفِرُ ولا أبالي، قال: حسبي.

قال زرارة: قلتُ لهُ - أي الإمام -: جُعلتُ فِداك بماذا استوجبَ إبليسُ مِن الله أن أعطاهُ ما أعطاه؟ فقال: بشيء كانَ منهُ شَكَرَهُ اللهُ عليه، قلتُ: وما كان منه جعلتُ فداك؟ قال: ركعتان ركعَهُما في السماء في أربعة آلاف سنة).

أهمّ ما جاء في هَاتين الروايتين: في الرواية الأولى الإمام الصادق يُحدّثنا عن أمرين مُهمين:

• الأمر الأول: ما يرتبط بقياس إبليس.

• والأمر الثاني: ما يرتبطُ بالحوار الذي دارَ فيما بين الله سُبحانه تعالى وبين إبليس.

■ قياسُ إبليس أخذهُ إلى أنّه يُريد أن يعبدَ اللهَ مِن حيثُ يُريد هو.. بل ربّما أنّ هذهِ الحالة هي التي أخذته إلى القياس (الأمور مُتداخلة)

القياسُ وهو أسلوبٌ من أساليب الاستنتاج والفِكر "هو طريقة مِن طُرق التفكير" قد تصدقُ في بعض الأحيان وقد لا تصدق.. ومِن هنا تحدّث الأئمة عن دينهم من أنّه لا يُقاسُ بالعقول؛ لأنّ العقول في ساحة الدين قد تُصيبُ وقد تُخطىء إذا ما دخلنا إلى التفاصيل، لأنّ التفاصيل خَلفيتها غَيبيةٌ، والعقول لا تستطيعُ أن تتلمّس الغَيب.

العقول بإمكانها أن تُدرك الكلّيات مِن الدين.. ومن لا عقل له لا دين له.. والأنبياء حُجَجٌ ظاهرة والعقول حُجَجٌ باطنة، وما بعِثَ الأنبياء إلّا لإثارة دفائنُ هذهِ العقول. (هذا منطِقُ الكتاب والعِترة).

● العقول لها مساحةٌ تتحرّك فيها ونعودُ إليها ونحتجُّ بها، ولكن العقول لن تستطيعَ أن تتعدّى تلكَ المساحة وتتدخّل في شُؤونٍ ورائيتُها غَيبيّةٌ لا تستطيعُ العقول أن تتلمّسها.. فحينئذٍ ستتخبّط. القياس طريقة تفكير وطريقة استنتاج في حياة الإنسان قد تُصيب وقد تُخطىء.. وإذا ما تَوجَّهنا بهذهِ الطريقة إلى تَفاصيل الدين فَإنّنا سنعثرُ ونعثرُ وعثرُ.. ومِن هنا عثرَ إبليس لأنّه قاس الأشياء على ظواهرها مِن دون أن يذهب إلى ما ورائيّة ذلك. ✤ وقفة قصيرة عند تساؤل ورد على سماحة الشيخ بشأن مضمون تَمّ بيانهُ في الحَلقاتِ المُتقدّمة يتعلّقُ بمَوقف إبليس حِين رفضَ السُجود لآدم واستعمل القياس وقال: {خلقتني من نارٍ وخلقتهُ مِن طين}

مضمون الاستفسار: هل كان إبليسُ ساذجاً وسَطحياً ونَظَر للظاهر فقط..؟ أمّ أنّه نَظَر للباطِن وأدرك عُمْق الباطن فاستكبرَ وأعرضَ عنه ووقف على الظاهر استكباراً وحسداً؟ لاسيّما وأنّ إبليس يَعلم الخَير كُلّه والشرّ كُلّه - كما أشار لِذلك الشيخ في برامج سابقة - فكيف نَفهم حال إبليس مع كُلّ هذهِ المُلابسات التي أُشير إليها في التساؤل..؟!

■ الجواب عن هذا التساؤل سأجعله في نقاط سريعة:

• أولاً : إبليسُ يعلمُ الخَير كُلّه ويعلمُ الشرّ كُلّه لبديهةٍ نحنُ نعرفها: فإنّ إبليس ينهى عن كُلّ خيرٍ ويأمرُ بكلّ شرّ، فكيف ينهى عن شيء لا يعلمه؟ وكيف يأمرُ بشيءٍ لا يعلمه (قطْعاً هو يَعلمُ كُلّ خير، ويعلمُ بكلّ شر).

• ثانياً : إبليس يعرفُ ظواهر الأمور وبَواطنها، ومِن هُنا تأتي وساوسهُ التي بسببها نَشأتْ الفِرَق الباطنية، بغضّ النظر عن باطنٍ على حقٍّ وعن باطنٍ على باطل (فما كُلّ ما يُصطلحُ عليه "الباطن" هو باطِل، وما لا كُلّ ما يُصطلحُ عليه "باطل" هو باطن).

إنّي مؤمنٌ بظاهركم وباطنكم.. وللقرآن ظاهرٌ وباطن، والإيمانُ إيمانٌ بظاهر وباطن.. فإبليسُ يخلط بين الحقّ والباطل.

فإبليسُ يعرفُ الخَير كلّه، وإبليسُ يَعرف الشرّ كُلّه.. وقطعاً مِن فُروع الخَير كلّه ومِن فروع الشرّ كلّه أنّه سيعلمُ الظاهر والباطن.

• ثالثاً: إبليسُ أيضاً قاس الأمور بشكلٍ ساذج.. هذا قياسٌ ساذج الذي قاسه إبليس ووصل به إلى ما وصل إليه

المُشكلةُ ليستْ في أنّ إبليس يعلم أو لا يعلم.. هناكَ قضيّةٌ لابُدّ أن نلتفتَ إليها وهي:

العالم الذي يملكُ عِلْماً واسعاً (العالم الذي يَعلمُ الخَير كلّه ويعلمُ الشرّ كلّه) هل هذا العالم يَعمل بعلمه أو لا..؟! إذا لم يكن يعمل بعلمه فهو ليس بعالم.. العالم الذي يُسمّى عالماً بحقّ في ثقافة الكتاب والعترة هو الذي يعملُ بعلمهِ، أمّا هذا الذي لا يَعملُ بِعلمهِ فإنّه يُسمّى عالماً عَرَضاً.. لو كان هذا العِلمُ علماً نافعاً لانتفع منه، قد يكون هذا العلم بما هو علماً نافعاً، ولكن بالنسبة لهذا العالم لا يُعدّ علماً نافعاً لأنّه لم يعمل بهِ، ولم ينتفع منه. العالم هذا ماذا حصّل مِن علمهِ؟ هل استعملهُ في خيرٍ أم استعمله في شر..؟ إذا كان قد استعمله في شرّ فلا يُقال له عالم، وإنّما يُقال له (مُلبّس وكافر)، هكذا وصفه الإمام الصادق كما جاء في حديثهِ في تفسير الإمام العسكري وهو يتحدّث عن طائفة كبيرة مِن مراجع التقليد عند الشيعة ويَصِفُهم بهذا الوصف أنّه (مُلبّس كافر).

فهل الذي يُوصف بأنّه مُلبّس وكافر هل هو عالم؟ قد يكون عالماً بنظر الناس.. قد يكون عالماً بنظر نفسه.. قد يكون عالماً مِن جهة حصول صور المعلومات في ذهنه.. أمّا بِحسب الموازين الإلهيّة فهذا ليس بِعالم.. (هذا عَالمٌ جعلَ عِلمهُ في خدمة جهالتهِ وخدمةِ سفاهتهِ وخدمة تفاهتهِ وفي خِدمةِ هواه..)

● في سورة الجمعة وصفٌ لمثل هذا العالم في هذهِ الآية، قولهِ تعالى: {مَثَلُ الذينَ حُمّلوا التوراةَ ثُمّ لم يَحملوها كمَثَلِ الحمارِ يُحمل أسفارا...}

الآية تتحدّث عن علماء لم ينتفعوا مِن علمهم عملياً.. والذي لا ينتفع مِن علمهِ هذا ليس عالم، هذا حمار.. بل هو أسوأ مِن الحمار..! لأنّ الحمار هو خُلِق هكذا.. ولِهذا الآية لم تقلْ أنّه حمار، وإنّما قالتْ: "كمثل الحمار" يعني أنّه أسوأ مِن الحِمار.. فإبليس بهذا المقياس حمار وأسوأ من الحمار، وهو يستحمر البشر.. هو يركب على البشر.. إبليس يستحمرُ العلماء!

■ تقريب الفكرة:

مثل جهاز الكُمبيوتر.. فهذا الجهاز فيه المَعلومات، ولكنّه مَضروبٌ بفايروس، ولذلك يُعطي نتائج خاطئة.

إبليس أيضاً عنده المعلومات ولكنّه ضُرِبَ بفايروس..! حينما يُضرب بفايروس ، فهو لا يستطيع أن يستعملَ عِلمه بشكلٍ دقيق.. فمع مَعرفتهِ بظواهر الأمور وبواطنها تذهبُ بهِ الغَفلةُ إلى أن يُفكّر بشكلٍ باطني فقط (مثلما حدث للفرق الباطنية) . أو أن يكون سَاذجاً ظاهرياً مثلما عليه الذين قصروا عقولهم على ظواهر الأمور فقط وهم أكثرُ علماء الدين في الوسط الشيعي والسُنّي.

والإيمان ليس إيمان بِظاهر فقط - كما تقول ثقافةُ الكتاب والعِـترة - ولا الإيمان بباطن فقط وإنّما الإيمان بظاهر وباطن معاً (إنّي مؤمن بظاهركم وباطنكم) فإبليسُ مع معلوماتهِ، ولكنّه في طَريقة تفكيرِهِ يكون مُختلّاً. مع دهائِهِ ومع مكْرِهِ ومع خُدَعِهِ.

● أصحابُ البصائر يخدعون إبليس ويستهزئون بإبليس، وهو لا يستطيع أن يخدعهم ولا يستطيع أن يستهزئَ بهم.. والسبب: لأنّهم يُفكّرون بشكلٍ صحيح.. أمّا إبليسُ فهو لا يُفكّر بشكلٍ صحيح، ولِذلك إبليسُ يضحكُ على الذين لا يُفكّرونَ بشكلٍ صحيح.

إبليس تنجحُ وتنفعُ مصائده مع المُغفّلين (وهم الذين لا يُفكرون بشكل صحيح).وكذلك هو أيضاً لا يُفكّر بشكلٍ صحيح في كثيرٍ من الأحيان، ولكنّه يمتلكُ قُدرةً فائقةً وعاليةً في الدهاء والمكر.. فدهاؤه ومكرهُ في أحيان كثيرة يُغطّي على غباء التفكير وفشل التفكير عنده.

(مزيجٌ مِن المعلوماتِ والمكْر والدهاء والخُذلان.. هذا الخذلان هو الذي يَجعل إبليس يُفكّر بِغباءٍ يَعودُ بالضَرر على نفسهِ وعلى أوليائهِ)

■ أعود للموضوع.. قلتُ هناك نقطتان مهمّتان أشار لهما إمامنا الصادق في هذه الرواية:

• الجهة الأولى: قياسُ إبليس والذي قادهُ إلى أنّه يُريد أن يعبد الله من حيث هو يُريد (ويُمكن أن تكون هذهِ الفِكرة هي التي قادته إلى القياس - كما أشرت - فالنفوسُ تتداخلُ فيها الهواجس والخلجاتُ والأفكار..) وربّما هذانِ الهاجسانِ تولّدا مِن شيءٍ آخر.

• الجهة الثانية التي أشارت لها الرواية : هي أنّ الله سُبحانه وتعالى بعظمته يُحاور إبليس، وحينما يطرحُ إبليسُ في حواره شيئاً منطقياً يقبلهُ الباري منه..! مع أنّه طردهُ والطردُ كانَ حُكماً عادلاً.

■ القضيّةُ التي أريد أن أثيرها هنا هي: (الحوار)

لستُ مجبوراً على أن أقبلَ حِواراً مع (س) أو (ص).. ولكن ليس مِن حقّي إذا كُنتُ قد وضعتُ نفسي في مَوضعٍ أو في مَقامٍ أو في مَنزلةٍ أحدُ شُؤوناتها "الحوار" أن أمنعَ الحوار.. نعم لي الحُريّةُ ولغيري أن لا أحاور (س) أو (ص) فهذا جزء من حُرّيتي الشخصيّة.. ولكنّني حِين أضعُ نفسي في مَوضع القيادةِ والزعامة، فمحلّ القيادة والزعامة - بِحسب ثقافة الكتاب والعِترة - يُلزمني أن أفتح باب الحِوار.. وإذا لم أجد مَصلحةً في ذلك، على الأقل أن أكون مُؤدّباً وأن أُقدّم اعتذاراً.

السؤال هُنا:

لماذا مَراجعنا وفُقهاؤنا الذين يَضعون أنفُسهم في مَوضعِ زَعامةِ وقيادة الأمّة، ويضعون أنفسهم نُواباً عن الإمام الحُجّة، لماذا يُغلقون أبواب الحوار وأبواب السؤال في وجوه أشياع أهل البيت..؟! الله سُبحانه وتعالى حِين سأله إبليسُ سؤالاً منطقياً أجابه ورتّب عليه الأثر..!

● الأئمة عليهم السلام كانتْ الشيعة تسألهم عن كُلّ شيء، ويَبحثون عن الدليل ويُناقشون في الدليل.. فلماذا مراجعنا وفقهاؤنا ينهرون الناس إذا ما سألوا عن التفاصيل وعن الحقائق..؟ مع أنّه أحرى بهم أن يُجيبوا. الأئمة مَعصومون، فبإمكان المعصوم أن يقول للسائل إنّني معصوم وما أقوله كامل، أمّا هؤلاء المراجع والفقهاء فهم ليسوا معصومين، يبقى كلامهم مَشكوكاً لابُدّ مِن إثباتهِ.. فلماذا هذا التجبّر في أخلاق علمائنا ومراجعنا بل في أخلاق وكلائهم..؟!

● وكيل بسيط يفرض نفسه طاغوتاً في وجه الشباب المُؤمنين حِين يَسألونه سُؤالاً.. ويَعتبر أنّ سُؤالهم خُروجاً على الدين وخُروجاً على المَرجعيّة..!

ما قيمة المرجع إذا كان الإمام الصادق يسأله القاصي والداني ويُحقّقون مع الإمام الصادق فيما يقول ويبحثون عن الأدلّة والتفاصيل.. فما قيمة المَرجع إذا حتّى تكون لهذا الوكيل قيمة..؟! هذه الظاهرة واضحة جدّاً في المؤسسة الدينية..!

إذا كان الله سُبحانه وتعالى يُحاور إبليس.. فمن هو هذا العالم؟ من هو هذا الفقيه؟ إذا كُنت أيّها الفقيه أو المَرجع جاهلاً أو عاجزاً فلماذا جلستَ في هذا المكان؟ وإذا لم تكن على خُلُقٍ رفيع في الحوار فلماذا جلستَ في هذا المكان..؟!

الأئمة يقولون: مَن جلس في صدْر المَجلس لابُدّ أن يُجيب حِين يُسأل ولابُدّ أن يُعطي المَشورةَ حِين يُستشار.. إذا لم يكن كذلك وأُهين فلا يلومَنّ إلّا نفسه. الذي يجلس في صدْر المجلس، لابُدّ أنّه يدّعي أنّه بقدر هذا المجلس.. فحينما يُسأل، لابُدّ أن يكون قادراً على إجابةِ أغلب ما يُسأل عنه.

أمّا إذا لم يكن قادراً على الإجابة ولم يكن قادراً على أن يُشير بالرأي السديد، ولم يكن قادراً على إدارة هذا المَجلس، فلماذا يجلسُ في صدر المجلس؟! والقضيّةُ هي القضيّة في المقاماتِ والمناصب والزعامة، فمن جعلَ نفسهُ نائباً عن الإمام الحُجّة، فعليهِ أن يُجيب على أسئلة شِيعةِ مَن يدّعي أنّه ينوب عنه.. ومِن حقّهم أنّ يسألوا.

● مثلما يأمر النبي والأئمة فقالوا للشيعي: سَلْ عن دينكَ حتّى يُقال عنكَ مجنون.. فمثلما أمرَ النبيّ الأُمّة هكذا.. فواجبُ على الذي يجلس في مَجلس النبي أن يُجيب على أسئلة هؤلاء المَجانين. الأئمة "صلواتُ الله عليهم" كان الناسُ يسألونهم ويُناقشونهم في كُلّ التفاصيل.

● قول الرواية: (فأوَّل ما سألَ البقاء إلى يوم الدين، فقال الله: قد أعطيتُك) الله تعالى أعطاه ما طلب، لأنّ هذا العطاء يتناسب مع عمل إبليس الذي كان قد صَدَر منه فيما سلف.

■ الرواية الثانية التي تحدّثت عمّا أعطاه الله لولد آدم (فما لي ولولدي؟ فقال: لكَ ولولدك السَيّئة بواحدة والحَسنةُ بعشر أمثالها...) إلى أن تقول الرواية: (اغفِرُ ولا أبالي، قال: حسبي...)

لقد أعطى الله آدم عطاءً أضعاف أضعاف ما أعطى لإبليس.. صحيح أنّه أعطى لإبليس مساحةً ومَجالاً كبيراً في أن يُؤثّر على مُجريات حَياةِ وُلْدِ آدم.. ولكن هذا العطاء (أغفرُ ولا أبالي) يعني أنّ إبليس سيبقى محدوداً وعُمره محدود، وتأثيره مَحدود.

صحيح أنّ إبليس من جهة بني البشر تأثيرهُ واسع، ولكن مِن جهة الله سُبحانه وتعالى فإنّ تأثير إبليس لا قِيمة له مع هذا القانون : أغفرُ ولا أُبالي.

✤ صورةٌ ألتقطُها لكم مِن حديث إمامنا الصادق.. الإمام يُحدّثنا عمّا دار مِن حوارٍ بين إبليس وأبينا آدم وأُمّنا حوّاء.. وهذا الحوار أدّى بِهما إلى أن أكلا مِن الشجرة.. جاء فيه:

(فقال: إنّكما إنْ أكلتُما مِن هذهِ الشجرة التي نهاكُما الله عنها صِرْتما مَلَكين، وبقيتُما في الجنّة أبداً، و إنْ لم تأكلا منها أخرجكما اللهُ من الجنّة. و حلفَ لهُما إنّه لهما ناصح، كما قال الله عزّ وجلّ حكاية عنه: {ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخٰالدين* و قاسمهما إني لكما لمن الناصحين} فقبل آدم قوله، فأكلا من الشجرة...)

● المُقاسمة هو تكرار الحلف وتأكيده.. هذا الحلف جعل أبينا آدم وأُمّنا حوّاء يأكلانِ مِن الشجرة.. وقطعاً هذا الحوار ليسَ هو السبب الوحيد لأكلهم مِن الشجرة.. فهناك الحسد أيضاً - كما مرّ - في الروايات التي تحدّثتْ عن تفاصيل قصّة أبينا آدم، ولكن هذا الجزء الأخير. فإنّ الأحداث والمُجريات التي تجري في حياتنا لا تأتي مِن جهة واحدة.. هناك تراكيب وهناك تراكم في كلّ حَدَثٍ مِن الأحداث. فأبونا آدم وأمّنا حواء كانت هناك مجموعة من البواعث.. إبليسُ كان واحداً مِن هذه البواعث.. وإلّا فليسَ إبليسُ الذي كان سبباً في وجود الحسد عند أبينا آدم وأُمّنا حوّاء وكان الذي كان. إبليس دخل مِن بوابة الحسد، فكان جزءاً أخيراً من العلّة لدفعهم إلى الشجرة.

■ أيَضاً ممّا جاء في تفسير القمّي: (فبقيَ آدمُ أربعينَ صباحاً ساجداً يبكي على الجنّة، فنزلَ عليه جبرئيل، فقال: يا آدم، أ لمْ يخلقكَ اللهُ بيده، ونفخَ فيكَ مِن رُوحه، و أسجدَ لكَ ملائكته؟ قال: بلى. قال: و أمركَ الله أن لا تأكل من الشجرة، فلم عصيتَهُ؟! قال: يا جبرئيل، إنّ إبليسَ حلَفَ لي باللهِ إنّه لي ناصح، و ما ظننتُ أنَّ خَلْقاً يخلقه الله يحلف به كاذباً..)

آدم هنا جعلَ مِيزاناً مِن عنده للتقييم، فقيّم إبليس.. ولو بحثتَ عن هذا المِيزان مِن أين أتى بهِ آدم لوجدتَ أنّه : الاستحسان.

فنحنُ ما بين القياس الإبليسي والاستحسان الآدمي. (تلك حكايةُ الدين وعلماء الدين ما بين القِياس والاستحسان)

القياس والاستحسان سُمّي بالاجتهاد عند السقيفة.. وسُمّيَ بالبُرهان عند الشيعة.. وبشكلٍ صريح هناك مِن علمائنا مَن يُصرّح في كُتبه ويقول: نحنُ علماء الشيعة نُسمّي القياس بالبُرهان ونُدخِلُه في مباحث الدليل العقلي في علم الأصول!

● فإبليسُ قاس واستكبر، ونهايته مَعروفة.. وآدم أوجد مِيزاناً للتقييم من عند نفسه ولم يتمسّك بالنصّ مِن الله الذي عنده وتمسّك بظنونهِ واستحساناتهِ وجرى ما جرى، ولولا رحمةُ محمّدٍ وآل محمّد لكان آدم في هاوية كما كان إبليس، فآدم رجع إليهم "صلواتُ الله عليهم".

فيا أيّها المراجع والفقهاء والخطباء، فلنرجع إلى آل محمّد، ولنترك استحساناتنا الخرقاء، ولنترك ظنوننا التي نُنشِؤها إمّا مِن الفكر الناصبي أو مِن آرائنا الشخصيّة.. لنتعلّم القرآن مِن حديثهم، ولِنعرف مُرادهم مِن خلال قواعدهم وأُصولهم لا مِن خلال قواعد وأصول المُخالفين كما تفعلون الآن.

■ رواية أُخرى عن الإمام الصادق عن ابن أبي عمير، جاء فيها:

(إنَّ مُوسى سألَ ربَّه أن يجمعَ بينهُ وبين آدم، فجمعَ، فقال له موسى: يا أبه، ألم يخلقكَ اللهُ بيدهِ، ونفخَ فيكَ مِن روحه، وأسجدَ لكَ ملائكته، وأمركَ أن لا تأكل مِن الشجرة فلم عصيته؟ قال: يا موسى، بكم وجدتَ خطيئتي قَبْل خَلقي في التوراة؟ قال: بثلاثين ألف سنة قبل خلق آدم، قال: فهو ذاك - أيّ أنّ القضيّة ليستْ مِنّي، وإنّما مسألةٌ تكوينية - قال الصادق: فحجَّ آدمُ موسى)

قد يقول قائل: أين التقى مُوسى بأبينا آدم؟ الجواب: التقاهُ في المِعراج، التقاه في الدنيا.. نَحنُ نتحدّث عن أنبياء، والأنبياء أحكامهم وخُصوصيّاتهم تختلفُ عن أحكامنا وخُصوصيّاتنا.. طبقاتُ الوجود مُنبسطةٌ لهم إنْ كانوا في الأرض أو كانوا في السماء.

● قول آدم (بكم وجدتَ خطيئتي قَبْل خَلقي في التوراة؟) يعني ماذا حدّثتكَ التوراة يا موسى؟ هل أنّ خطيئتي كانت مُقدّرةً قبلي؟ أم بعد أن وُجدت؟

● قول الإمام الصادق (فحَجَّ آدمُ موسى) يَعني لم يستطعْ موسى أن يُواجه حُجّة أبينا آدم.. وهذا يأخذنا إلى ما ذكرته في الحلقات السابقة من أنّ قصّة أبينا آدم فيها وجهٌ تكويني، وفيها وجهٌ رمزيٌّ فلسفي.. الوجه التكويني فيها ينشعب إلى شُعبتين:

• الشعبة الأولى: تكوينٌ لِخارطةِ برنامج "مشروع الخلافة".. بعبارة أخرى: الحياةُ الإنسانيةُ على الأرض.

• الشعبة الثانية: تكوين المخلوق الإنساني، وتكوينُ طَبَقات النفس البشرية وطبقات العقل البشري.. ونحنُ إلى الآن ما وصلنا إلى فاعلية هذه النفوس، وفاعلية هذه العقول.. لن تتجلّى هذه الفاعلية إلّا عند ظُهور إمام زماننا حِين يَمسحُ على رؤوس الخلائق فيَجمعُ بذلك عقولهم، وتكملُ بذلك أحلامهم. (جمعُ العقول وتكامل الأحلام.. إشارة إلى تكامل القِوى الإدراكية، وتكامل النزعات النفسيّة عند الإنسان)

● فما تحدّثت عنه "قصّة الخلافة" تحدّثتْ عن بُنيان قوى الإدراك تكويناً عند الإنسان، وكان أبينا آدم الأنموذج والأمثولة التي تجلّت فيها كُلّ هذه التفاصيل.. فكانت قصّة أبينا آدم على شطرين:

• شطرٌ قبل الأرض: وهذه حكايةُ التكوين الإنساني (تكوينٌ لِخارطة برنامج الخلافة.. وتكوينٌ لِمثالٍ وأنموذج سينزل إلى الأرض، وهذا الأنموذج تجلّى في أبينا آدم بعد أن نزل إلى الأرض).

• وشطرٌ بعد الأرض: وهذا الشطرُ يُمثّل حكايةُ نبيّ معصوم، وحكاية إنسان مُستخلفٍ على التُراب وحكايةُ والدٍ نحنُ أولاده.

■ وقفة عند حديث الإمام الصادق في [تفسير العيّاشي] في قولهِ تعالى: {بَدَتْ لَهما سَوآتُهما} قال: (كانت سوآتُهما لا تبدو لَهما فبدت، يعني كانتْ مِن داخل). يعني كانت غير ظاهرة، كانت مِن داخل والآن بدأت تتكامل استعداداً للنزولِ إلى الأرض.

■ وقفة عند مُحاورة بين الإمام الصادق وبين أبي حنيفة في كتاب [الاحتجاج: ج2] وهي مِصداق مِن مصداق القياس الإبليسي والعمل الإبليسي:

(أنَّ الصادق "عليه السلام" قال لأبي حنيفة لمَّا دخل عليه: مَن أنت؟ قال: أبو حنيفة. قال الإمام: مُفتي أهل العراق؟ قال أبو حنيفة: نعم.

قال الإمام: بما تُفتيهم؟ قال: بكتاب الله. قال الإمام: وأنَّك لعالمٌ بكتاب اللهِ ناسخه ومنسوخه، ومُحكمه ومتشابهه؟ قال: نعم. قال الإمام: فأخبرني عن قول الله عزَّ وجلَّ: {وقدَّرنا فيها السَير سِيروا فيها لياليَ وأيّاماً آمنين} أيُّ مَوضعٍ هو؟ قال أبو حنيفة: هُو ما بينَ مكّة والمدينة، فالتفتَ أبو عبد الله إلى جُلسائه. وقال: نشدتُكم بالله هل تَسيرون بينَ مكّة والمدينة ولا تأمنون على دِمائكم مِن القَتل، وعلى أموالكم مِن السَرَق؟

فقالوا: اللّهم نعم. فقال أبو عبد الله: ويحكَ يا أبا حنيفة! إنَّ الله لا يقولُ إلّا حقّاً.

أخبرني عن قول اللهِ عزَّ وجلَّ: {ومَن دخله كان آمنا} أيُّ موضع هُو؟ قال: ذلك بيتُ اللهِ الحرام، فالتفتَ أبو عبد الله إلى جُلسائه وقال: نَشدتكم بالله، هل تعلمون أنَّ عبد الله بن الزبير وسعيد بن جُبير دَخلاهُ فلم يأمنا القتل؟ قالوا: اللّهم نَعم. فقال أبو عبد الله: ويحك يا أبا حنيفة! إنَّ الله لا يقولُ إلّا حَقّاً. فقال أبو حنيفة: ليس لي عِلْمٌ بكتاب الله، إنّما أنا صاحبُ قياس - يعني أستعملُ المنطق وأستعمل منهجية عقلية في التفكير والوصول إلى النتائج-.

قال أبو عبد الله: فانظرْ في قياسكَ إنْ كُنتَ مُقيساً، أيُّما أعظم عند الله القتل أو الزنا؟ قال: بل القتل. قال الإمام: فكيف رضى في القَتْل بشاهدين، ولم يرضَ في الزنا إلّا بأربعة؟ ثمّ قالَ لهُ: الصلاة أفضلُ أم الصيام؟ قال: بل الصلاةُ أفضل. قال عليه السلام: فيجبُ على قِياس قولكَ على الحَائض قضاءُ ما فاتها مِن الصلاة في حال حَيضها دُون الصيام، وقد أوجبَ الله تعالى عليها قضاء الصومِ دُون الصَلاة.

قال له: البول أقذرُ أم المني؟ قال: البَول أقذر. قال "عليه السلام": يجبُ على قياسكَ أن يجب الغُسل مِن البول دُون المني، وقد أوجب الله تعالى الغُسل من المني دون البول. قال: إنّما أنا صاحبُ رأي - أي باحث مُحقّق -

قال "عليه السلام": فما ترى في رجلٍ كان لهُ عبد فتزوّج وزوَّج عبده في ليلةٍ واحدة، فدخلا بامرأتيهما في ليلةٍ واحدة ثمَّ سافرا وجعلا امرأتيهما في بيت واحد وولدتا غلامين، فسقط البيت عليهم فقتل المرأتين وبقي الغلامان أيُّهما في رأيك المَالك وأيُّهما المَملوك وأيُّهما الوارث وأيُّهما الموروث؟

قال: إنّما أنا صاحبُ حدود - أي الذي يُقيم الحدود على مَن عليه حدّ كالزاني مثلاً - قال الإمام: فما ترى في رجلٍ أعمى فقأ عين صحيحٍ، وأقطع - يده مقطوعة - قطع يد رجل، كيف يقام عليهما الحد. قال: إنَّما أنا رجلٌ عالمٌ بمباعثِ الأنبياء. قال الإمام: فأخبرني عن قول الله لموسى وهارون حِين بَعَثَهُما إلى فرعون: {لعلَّه يتذكَّر أو يخشى} ولَعلَّ مِنكَ شكٌ؟ قال: نعم. قال الإمام: وكذلك مِن اللهِ

شكٌّ إذ قال: (لعلَّه)؟ قال أبو حنيفة: لا علم لي. قال "عليه السلام": تزعمُ أنَّك تُفتي بكتاب الله ولستَ مِمَّن ورثه - الوراثة العلمية - وتزعم أنّك صاحبُ قياس وأوّل مَن قاس إبليس لعنهُ الله، ولم يُبنَ دينُ الإسلام على القياس، وتزعمُ أنّك صاحبُ رأي وكان الرأيُّ مِن رسول الله صواباً ومِن دُونه خطأ، لأنّ الله تعالى قال:

{فاحكم بينهم بما أراك الله} ولم يقلْ ذلك لغيره، وتزعمُ أنّك صاحبُ حدود، ومَن أُنزلتْ عليه أولى بعلْمها منك، وتزعمُ أنّك عالمٌ بمباعثِ الأنبياء - هذا هو علم الكلام-، ولَخاتم الأنبياء أعلمُ بمباعثهم منك، ولولا أن يُقال: دَخل على ابن رسول الله فلم يسأله عن شيءٍ ما سألتكَ عن شيء، فقِسْ إنْ كُنتَ مَقيساً.

قال أبو حنيفة: لا أتكلّم بالرأي والقياس في دين الله بعد هذا المجلس. قال الإمام: كلّا. إنَّ حُبَّ الرئاسةِ غيرُ تاركَكَ كما لم يتركْ مَن كان قبلكَ..)

● قول الرواية (بما تُفتيهم؟ قال: بكتاب الله) دقّقوا في تَفاصيل هَذا الحِوار وطَبّقوه على الواقع.. حِينما يتحدّث عالم الدين الشيعي فإنّ أوّل عنوان يطرحه هو: القرآن، حتّى لا يُقال أنّ الشِيعة لا تهتم بالقرآن (وهو منهج المُخالفين لأهل البيت).

● الشيء الواضح في هذه المُحاورة هو الإدّعاء بالرجوع إلى كتاب الله مِن دون العِترة، ثُمّ بعد ذلك الرجوع إلى القواعد المنطقيّة والأصوليّة مِن دون العِترة، ثُمّ بعد ذلك الرجوع إلى الرأي (البحث الشخصي)، وإلى علم الكلام مِن دون الرجوع إلى العترة.

هذهِ المَنهجيّة مَنهجيّة إبليسيّة واضحة، ولِذلك قال له الإمام الصادق: وأوّل مَن قاس إبليس لعنه الله.

■ وقفة عند حديث أبي حنيفة مع الإمام الصادق "عليه السلام" في [كتاب القطرة للسيّد أحمد المُستنبط: ج1] والذي نقله عن كتاب [كنز الفوائد] للكراجكي).جاء فيه:

(أنّ أبا حنيفة أكل طعاماً مع الإمام الصادق جعفر بن محمّد "صلوات الله عليهم"، فلمّا رفع الصادق يده مِن أكله قال: الحمد لله ربّ العالمين، اللّهم هذا منك، ومِن رسولك (صلّى الله عليه وآله). فقال أبو حنيفة: يا أبا عبد الله، أجعلتَ مع الله شريكاً؟

فقال له: ويلك، فإنَّ الله تعالى يقول في كتابه: {وما نَقموا إلّا أن أغناهم الله ورسوله مِن فضله}، ويقول في موضع آخر: {ولو أنّهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيُؤتينا الله مِن فضله ورسوله}.

فقال أبو حنيفة: والله، لكأنّي ما قرأتهما قط مِن كتاب الله ولا سمعتهما إلّا في هذا الوقت!

فقال أبو عبد الله "عليه السلام": بلى، قد قرأتهما وسمعتهما، ولكنّ الله تعالى أنزل فيك وفي أشباهك: {أم على قلوبٍ أقفالها} وقال: {كلّا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون})

في أحاديث أهل بيت العِصمة أنّ حديثهم يجلو الرين عن القلوب، وعن العقول.. يجلو الرين في بُعدهِ المعرفي: كلامكم نور.

● مُشكلة أبي حنيفة أنّه يفهم الكتاب بِحسب رأيهِ، بحسب ذوقهِ، ويحكم على الأشياء بحسب ما يرى.

هو صنعَ قواعد لِتعريف الشِرك من عنده، بحيث يقول للإمام الصادق : (أجعلتَ لله شريكاً) فسَر القُرآن برأيهِ مِن دُون الرجوع إلى الذين أمرَ الله بالرجوع إليهم في تفسير القرآن.

ومَراجعنا صَنعوا نفْس الصَنيع، والدليل كُتب التفسير، فكُتبُ تفسير عُلمائنا ومَراجعنا في المَكتبة الشيعية لا علاقة لها بأهل البيت، هي أقرب إلى تفاسير النواصب مِن حديث أهل البيت، ويُشكّكون في حَديث أهل البيت في نفس هذه الكُتب..! ويُعرضون عن تفاسير أهل البيت..!

فالمنطق الذي يتحدّث بهِ أبو حنيفة هُو المَنطق الشائع في المُؤسسة الدينية.

■ صورة أخرى: وقفة عند حديث آخر للإمام الصادق مع أبي حنيفة في [بحار الأنوار: ج47] جاء فيه:

(وخرجَ أبو عبد الله يتوكّأ على عصا فقال له أبو حنيفة: يا ابن رسول الله، ما بلغتَ مِن السِن ما تحتاجُ معه إلى العَصا، قال: هو كذلك ولكنّها عصا رسول اللهِ أردتُ التبرُّك بها، فوثبَ أبو حنيفة إليه، وقال لهُ: أُقبّلُها يا ابن رسول الله، فحَسَرَ أبو عبد الله عَن ذِراعهِ وقال لهُ: واللهِ لقد علمتَ أنَّ هذا بَشَرُ رسول الله - أي جلدهُ ولحمهُ ودمهُ - وأنَّ هذا مِن شَعْرِهِ، فما قبَّلتهُ وتُقبّل عصا..!)

هذا الإعوجاج في المنطق.. هذهِ السَذاجة في التفكير. أبو حنيفة يَعلم أنّ هذا دم ولحم رسول الله، والآن عَلِم أنّ هذهِ العَصا هي عَصا رسول الله.. فقبّل العصا!.. صحيح أنّ عصا رسول الله لها قيمة، ولكن.. ما قيمة العصا بالقياس إلى رسول الله..؟!

فالقضيّةُ ليستْ في المَعلومات، القَضيّةُ في طَريقةِ التفكير.. القِصّة هي القِصّة.. وهذا الحالُ موجودٌ عندنا، أنشأتهُ المؤسسة الدينية.

(وقفة توضيح لصورة هذه النقطة في واقع المؤسسة الدينية).

■ لقطة أخرى أيضاً في أجواء أبي حنيفة في [بحار الأنوار: ج47] جاء فيه:

(يقول أبو حنيفة لِمُؤمن الطاق إنّكم تقولونَ بالرجعة. قال: نعم. قال أبو حنيفة: فأعطني الآن ألفَ درهم حتّى أعطيكَ ألف دينار إذا رجعنا - يستهزئ بالرجعة -. قال الطاقي لأبي حنيفة فأعطني كفيلاً بأنّك ترجعُ إنساناً ولا ترجعُ خنزير)

هذا النَفَس (نَفَسُ الاستهزاء بالرجعة أليس موجوداً عِندَ مراجعنا..؟!) فهناك مِن المراجع مَن يقول أنّ الرجعة لا تُساوي عنده قُلامة ظِفر! وآخر يقول لا تُساوي عنده فلساً! وتكاد كلمتُهم تُجمع أنّه لا تأثير سلبي على إيمان مَن لم يعتقد بالرجعة..! بينما الأئمة يقولون: ليسَ منّا مَن لم يُؤمن برجعتنا.